العمـــــارة المملـــــوكيـة – الجزء (2)

MAMLUK ARCHITECTURE

(648-922هـ/1250-1516 م)

2. عمـــارة دمشـــق في عـــهد الممـــاليك

أقيم في دمشق في عهد المماليك عدد كبير من الأبنية من أشهرها: المدرسة والتربة الظاهرية والمدرسة الجقمقية والمدرسة السيبائية إضافة إلى الجوامع المختلفة ومنها أيضا إعادة بناء المئذنة الغربية في الجامع الأموي.

1.2. المئذنـة الغربيـة للجـامع الأمـوي أو مئذنة قايتباي في دمشق Qaitbay Minaret

كان الجامع الأموي في دمشق قد تعرض إلى حريق في عام 884 هـ/1479 م. أمر السلطان الأشرف قايتباي بترميم الأجزاء التي تدمرت ومن ثم أمر بإعادة بناء المئذنة الغربية وانتهى بناؤها سنة 893هـ/1489 م.

هذه المئذنة تتخذ شكلا لم يكن معروفا في دمشق إلى ذلك الحين. جسم المئذنة يبدأ بقاعدة مربعة يعلوها طبقتان مضلعتان مثمنتا الشكل العليا أصغر، يعلوهما جزء أسطواني يحمل في نهايته قبة بصلية صغيرة. بين كل طبقتين شرفة للآذان محمولة على مقرنصات. وهذه الطريقة في بناء المآذن متأثرة بشكل واضح بأبنية القاهرة. ولكن الزخارف التي تغطي المئذنة، والتي تتميز باستخدام اللونين الأبيض والأسود (الحجر الكلسي والحجر البازلتي) والأشرطة الزخرفية المعشقة إضافة إلى الحليات الدائرية كلها تعتبر ذات صبغة محلية واضحة.

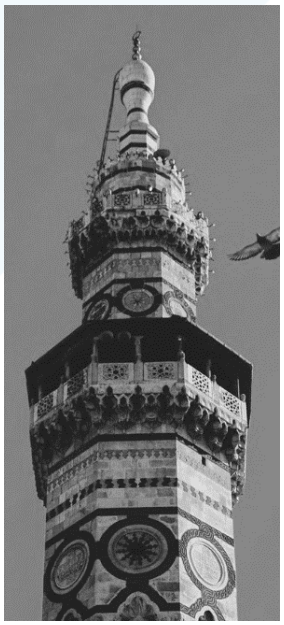

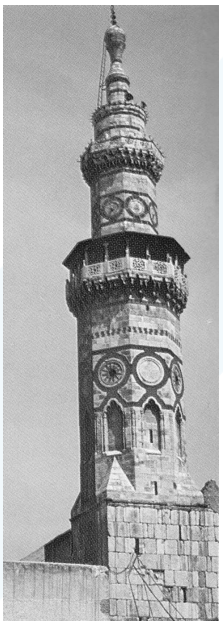

الجامع الأموي في دمشق: مئذنة قايتباي

2.2. مباني مملوكية أخرى في دمشق

طبعا يوجد في دمشق عدد من المباني الهامة التي تعود إلى الفترة المملوكية منها مثلا **المدرسة والتربة الجقمقية Madrasa and Turba ag-Gaqmaqiya** (824هـ/1421م) وجامع وحمام التوريزي وجامع والمدرسة السيباهية وغيرها. وهي تتميز بواجهات الأبلق المكون من تناوب صفوف الحجر كلسي والحجر بازلتي تزينها فوق الفتحات صفوف من الحجارة المعشقة، والأشرطة الكتابية والحليات الدائرية المكونة من الحجارة المعشقة، حيث نجد الاتجاه الأفقي هو الغالب على الواجهات في دمشق في الفترة المملوكية ويتوجها من الأعلى صف من الشرافات غالبا ما يكون على شكل زنبقة. إضافة إلى البوابة المرتفعة والغائرة على شكل إيوان والتي تنتهي بنصف قبة مقرنصة.

المدرسة والتربة الجقمقية في دمشق

جامع والمدرسة السيباهية في دمشق

3. عمـــارة حلـــب في عـــهد الممـــاليك

يقوم في حلب عدد كبير من المباني المملوكية، منها المساجد والترب والسبلان والبيمارستانات والخانات التي تتميز بالطابع المحلي للعمارة المملوكية فيها وتعبر عن الدقة والبراعة الفنية في زخرفة الواجهات.

1.3. جـــامع الأطـــروش في حلـــب al-Utrush Mosque

يعد جامع الأطروش، الذي يقع جنوب شرق القلعة خلف القصر العدلي من أهم مساجد العهد المملوكي في حلب. بدأ ببنائه حاكم حلب الأمير أقبغا الأطروشي ولكنه لم يكتمل إلا في عهد دمرداش الناصري سنة 812 هـ/1408م. يتم الدخول إلى الجامع عبر بابين أحدهما في الشمال والآخر في الغرب. كلا البابين يؤدي إلى الرواق المحيط بصحن الجامع المستطيل

الشكل، الذي يتقدم الحرم الواقع في الجهة الجنوبية. الحرم يتألف من مجازين موازيين لجدار القبلة. الحرم والأروقة جميعها مسقوفة بالقبوات المتصالبة، كما في الجامع الأموي في حلب الذي جدد في هذا العصر. المدخل الغربي للجامع يقوم داخل محراب مرتفع نهايته العلوية أعلى من بقية الواجهة وهو ينتهي بصفوف من المقرنصات ونصف قبة تنتهي من الخارج بقوس مدبب من الحجارة المزخرفة. الباب نفسه يتميز بتناوب المداميك البيضاء والسوداء على جانبيه وينتهي بساكف أفقي فوقه شريط من الحجارة المعشقة تعلوها لوحة نقش. تَوضع النوافذ في الواجهة مشابه ولكنها تقع ضمن دخلات أقل عمقا، يحيط بها إطار زخرفي مستطيل ينتهي في الأعلى بمقرنصات، أي أننا نلاحظ التنسيق الشاقولي للواجهات الذي يشبه ما كان مستخدما في مباني القاهرة.

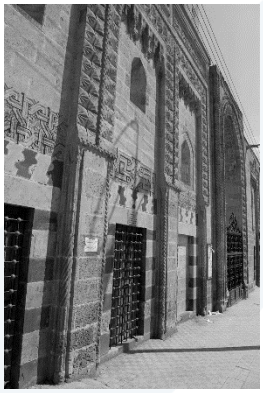
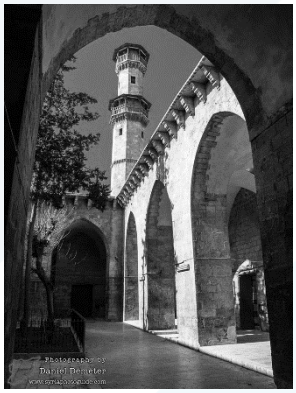

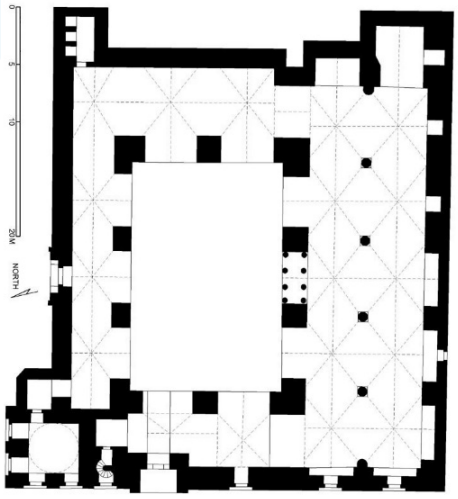

جامع الأطروش في حلب: حرم الجامع - صحن الجامع - تفاصيل الواجهة - المسقط - الواجهة الغربية

تقوم مئذنة الجامع غرب البوابة الرئيسة، وهي مئذنة بسيطة مثمنة المسقط، يقل قطرها عند شرفة الأذان الأولى المحمولة على مقرنصات ويحيط بها درابزين خشبي، تليها شرفة أخرى أصغر حجما تنتهي بقبة صغيرة (لا تشبه القبة البصلية في القاهرة). يجاور المئذنة في الزاوية الشمالية الغربية تربة دفن فيها أقبغا مؤسس الجامع، تعلوها قبة بسيطة تقوم على رقبة أسطوانية.

2.3. حمـام يلبغـا الناصري في حلـب Hammam Yalbugha an-Nasiri

اتخذت الحمامات العامة أهمية في العمارة الإسلامية نظرا للاهتمام الكبير الذي أعطاه الإسلام للطهارة والاغتسال والوضوء. وقد تأثرت الحمامات التي انتشرت في المدن الإسلامية في تصميمها بالحمامات الرومانية التي سبقتها ولكنها أصغر منها مساحة ولا تضم جميع الأقسام فقد تم التركيز هنا على القسم البارد الذي أصبح يعرف بالبراني يليه القسم الدافئ (الوسطاني) ومن ثم القسم الحار (الجواني) يلحق بها فراغات تخديمية لتسخين المياه تدعى القميم يتبعها مستودع للوقود.

ومن أشهر حمامات حلب التي تعود إلى الفترة المملوكية حمام يلبغا الناصري المعروف أيضا بحمام اللبابيدية. أنشأه الأمير يلبغا الناصري المتوفى عام 893 هـ / 1499 م وهو يقع إلى الجنوب من قلعة حلب قرب برجها الجنوبي.

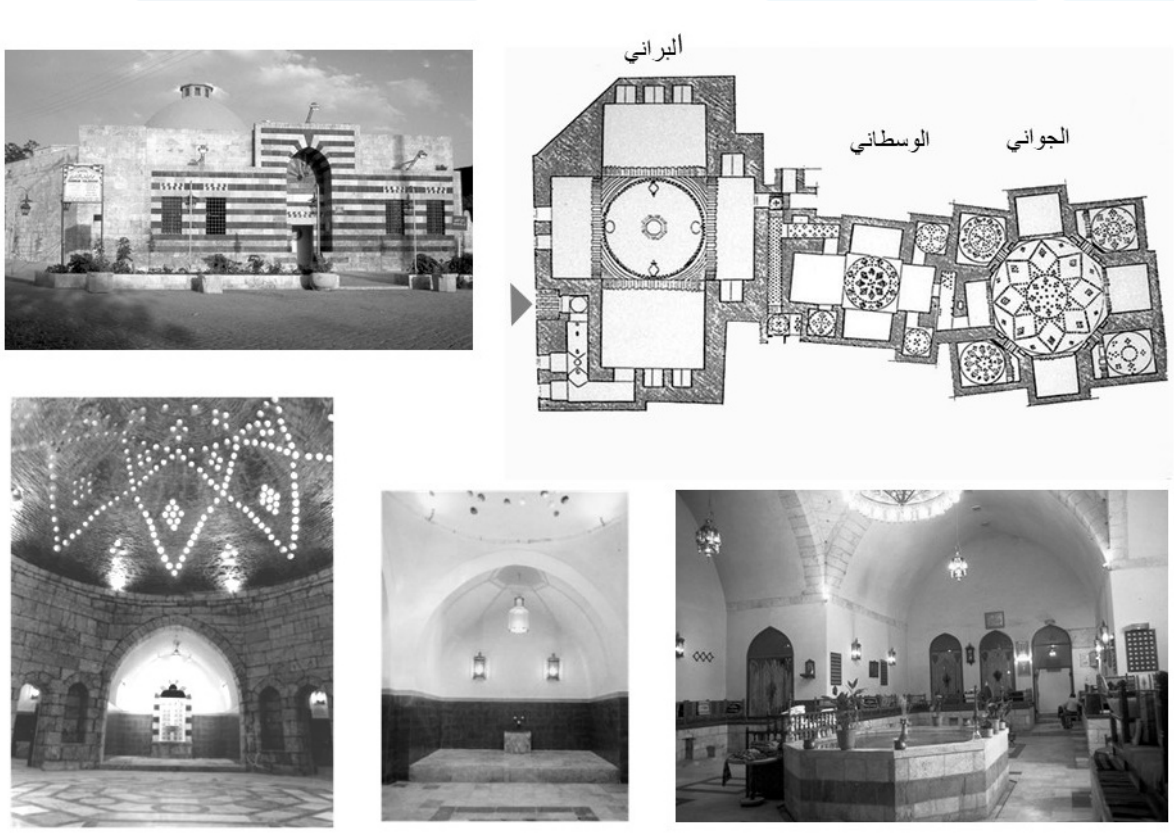

حمام يلبغا الناصري في حلب: المسقط - الواجهة الغربية - البراني - الوسطاني - الجواني

واجهة الحمام مبنية بالمداميك المتناوبة باللونين الأصفر والأسود (الأبلق) يتوسطها بوابة تنتهي بقوس مدبب وتؤدي عبر ممر منكسر إلى البراني، وهو فراغ واسع تعلوه قبة وتتوسطه بركة مياه مثمنة الشكل، وتحف به أربعة أواوين مسقوفة بقبوات أسطوانية (تصميم مصالب). البراني هو المشلح عند دخول الحمام والخروج منه ومكان الاستراحة يلحق به عادة

مطبخ صغير لإعداد القهوة والشاي. يتبع البراني ممر منكسر يساعد في الحفاظ على اختلاف درجات الحرارة بين الأقسام المتتالية ويضم دورة مياه في نهايته ويفضي في منتصفه إلى الوسطاني، الذي يشبه البراني من حيث التصميم ولكن بأبعاد أصغر وتحيط به في الزوايا ثلاث مقصورات. يليه عبر ممر منكسر آخر الجواني المؤلف من قاعة مركزية مثمنة الشكل تعلوها قبة وتنفتح عليها أربعة أواوين تتوزع فيما بينها أربع مقصورات مستقلة. يخترق القبة والقبوات المختلفة التي تسقف الوسطاني والجواني منافذ أسطوانية من الآجر تنتهي من الخارج بالزجاج الملون تدعى قمريات تؤمن إنارة الأقسام الداخلية. يلحق بالحمام مستودع للوقود وآخر للمياه وموقد للتسخين وبئر.

ظل هذا الحمام محافظا على بنيته الأصيلة ويستقطب الزوار ولا سيما السياح منهم، بحيث يتم التناوب بين توقيت مخصص للرجال وآخر مخصص للنساء، كما جرت العادة فيما مضى.

3.3. الخـــانات المملـــوكية في حلـــب

بما أن حلب مدينة تتميز بنشاطها التجاري فقد أقام المماليك فيها عددا من الخانات الضخمة منها مثلا خان الصابون وخان القصابية وخان قرتباي وخان خيربك. الخان في المدينة هو مكان تجارة الجملة ضمن السوق وغالبا ما يكون مخصصا لتجارة مادة معينة. الخان يتكون من فناء واسع تحيط به أروقة تتقدم صفا من الغرف، وغالبا ما يتكرر ذلك على طابقين. تتوزع في الطابق الأرضي المخازن والمستودعات بينما تتواجد في الطابق العلوي المكاتب وغرف السكن للتجار الغرباء. قد يضم الخان مسجدا ويلحق به أحيانا إسطبل.

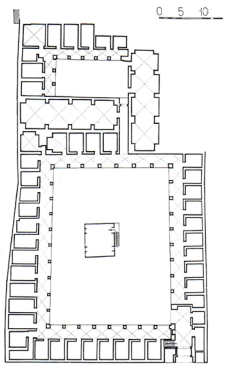

خان القصابية في حلب: مسقط الطابق الأرضي - مدخل

خان قورت بك في حلب: الفناء الداخلي

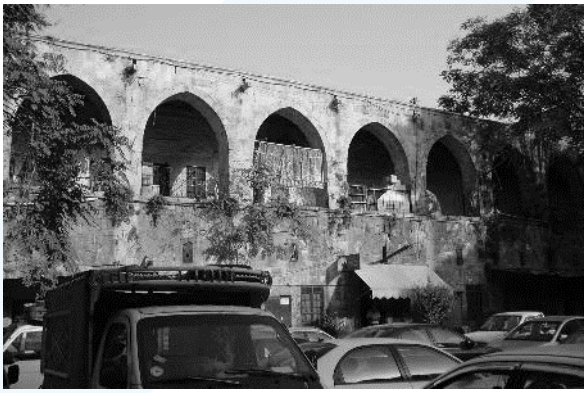

2. خصـائص العمـارة المملــوكية

ظهرت في الفترة المملوكية مبان ضخمة، هي عبارة عن مجمعات معمارية ذات مساحة كبيرة، غالبا ما تضم مدرسة وتربة وبيمارستانا، وقد تشمل أحيانا سبيلا وكتابا أيضا.

وبنيت المباني المتعددة الطوابق، المؤلفة من ثلاث إلى خمس طبقات خاصة في القاهرة، بينما لم تكن أبنية العهود السابقة تتجاوز الطابقين. تتميز الأبنية ببواباتها الفخمة، التي تؤدي عبر دهليز إلى فناء تحيط به الأواوين والفراغات المختلفة. ويلفت النظر أن مساحة الفناء أصغر من ذي قبل، وقد سقف أحيانا.

أعطيت البوابات والواجهات اهتماما خاصا من حيث التصميم والزخرفة، حيث نجد في القاهرة واجهات تفتح فيها النوافذ ضمن دخلات جدارية شاقولية. البوابة على شكل إيوان بارتفاع الواجهة أو يزيد عنها قليلا وعلى جانبي المدخل مقعدين أو مصطبتين.

أخذت زخرفة المباني من الداخل والخارج أهمية كبيرة في عهد المماليك. وهي تعتمد على الألوان المختلفة التي نراها في تناوب المداميك وحجارة السواكف المعروفة بالأبلق والأقواس المكونة من حجارة متداخلة أو معشقة ونراها أيضا في الأفاريز أو الأشرطة الزخرفية والكتابية.

أما المآذن فقد تطورت من الشكل البسيط ذي المسقط المربع وأصبحت تتألف من عدة طبقات تتوالى فيها الأشكال المربعة، فالمضلعة، فالأسطوانية. وتطورت وتعددت شرفات الأذان، تنتهي العليا بينها بما يسمى الشادروان، المؤلف من ثمانية أعمدة رشيقة (سويريات) تحمل قبة بصلية صغيرة. تزين المئذنة محاريب ونوافذ وأقواس مختلفة.

كما طرأ تتطور ملحوظ على القباب فقد زاد ارتفاعها وتنوعت أشكالها وغطيت بالزخارف من الداخل والخارج. القباب كانت ذات رقبة أو رقبتين إحداهما مضلعة والأخرى أسطوانية، الغاية منهما زيادة ارتفاع القبة. وكثيرا ما جعلت القبة محززة من الخارج على شكل أضلاع شاقولية. وشاع في التسقيف إلى جانب القباب الأسقف المكونة من جسور وألواح خشبية مزينة بالزخارف والرسوم.

انتشرت الفسيفساء بأنواعها الرخامية والزجاجية، بالإضافة إلى الزخارف الجصية والنقوش الحجرية والخشبية وشاعت أشرطة الكتابة العريضة. واستمر استخدام المقرنصات، فهي تتوج الأبواب والنوافذ وتحمل شرفات المآذن وتشكل تيجان الأعمدة.